



مقدمة:

نسج في عقول الكثيرين أن ما يحدث في هذا العالم من حوادث وأزمات وقلائل وحروب إنما هو وفق تخطيط خبيث من الغرب، حتى أن مصبر ثورتنا – التي بذلنا لها أغلى الدماء – مرهون أيضاً بالمخطط الخبيث الذي يحاك لنا، فما علينا سوى الانتظار حتى يبرم وينفذ المخططون قرارهم فيينا.

أمام هذا التصور غير الدقيق تغيب حقيقة أن إرادتنا هي أساس المعادلة، وقبل ذلك أن أمر الله وقدرته فوق كل أمر وقدرة.

1- الله أشدُّ منهم قوة

إن الدول العظمى مهما بلغت قوتها وجبروتها فهي في سلطان الله، وقوه الله أشد من قوتهم، {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَا قُوَّةً أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} [فصلت: 15]. {إِنَّمَا تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ نَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلُقْ مِثْلًا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّرْخَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لِيَأْمِرُ صَادِ} [الفجر: 14-6]

{كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبِنَّ أَنَا وَرَسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: 21].

2- الله أسرع مكرًا

قال تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرُهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَرْوَلَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعِنْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامَةٍ} [إبراهيم: 46-47].

هذا المكر العظيم الذي كادت أن تزول منه الجبال الشاهقة مكتوب عند الله، بل إنه لم ينفذ إلا بإرادة الله جل في علاه، ولكن الوعد الإلهي حاضر فلا تحسروا الله مخلفًّا وعده عباده إنه عزيز ذو انتقام، يبلو الناس بعضهم ببعض، ألم نسمع قول الله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءَ وَقَلْبِهِ} [الأనفال: 24].

وقول نبينا عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَفَلْبٌ وَاحِدٌ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ) [] 1

أيها الناس: إن القلوب التي في أمريكا وروسيا وإيران وكل دول الظلم والضلالة بيد الله كقلب رجل واحد يقلبه كيف يشاء،

أَفْسِرَ عَلَى اللَّهِ إِذَا أَرَادَ نَصْرَنَا أَنْ يَقْلُبَ قُلُوبَهُمْ وَيَتَرَاجِعُوا!

أَوْ يَقْذِفَ الرَّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ فَيَنْهَمُوا؟!

أَوْ يَغْيِرَ أَهْدَافَهُمْ فَيَخْتَلِفُوا؟!

إِنَّهُ اللَّهُ خَالِقُ الْخَلْقِ وَهُوَ الْمُتَحَكِّمُ فِيهِمْ، {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: 54].

إِنَّ الدُّولَ الْكَبْرَى الظَّالِمَةُ لَهَا يَوْمٌ سَتَزُولُ فِيهِ، وَلَهَا مَوْعِدٌ مَحْدُودٌ سَتَنْتَهِي فِيهِ، قَالَ تَعَالَى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكَنَا هُنَّا لَمَّا ظَلَمُوْا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا} [الكهف: 59].

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوْا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِلنَّظَرِ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [يونس: 13-14].

إِنَّ الْمَكْرَ الَّذِي يَمْكِرُهُ الْقَوْمُ لَنْ يَكُونَ أَسْرَعَ مِنْ مَكْرَهُ الظَّالِمِ فَهُوَ الَّذِي يَسِيرُ الْأَمْرَ وَبِيَدِهِ مَقَالِيدُهَا، {قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ * هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [يونس: 21-22].

وَاللَّهُ يَدِيرُ لَنَا وَيَمْكِرُ لَنَا وَنَحْنُ لَا نَشْعُرُ، غَافِلِينَ عَنِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ رَعَايَتِهِ لَا تَغْدِرُنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، اسْمَعْ إِلَى آيَاتِهِ تَتَلَى عَلَيْكَ: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَا هُنَّا وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ حَاوِيَّةٌ بِمَا ظَلَمُوْا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [النَّمَل: 50-53].

3- اللَّهُ يَفْعُلُ مَا يُرِيدُ

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا افْتَنَّا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعُلُ مَا يُرِيدُ} [البَقْرَة: 253].

وَلَكِنْهُ شَاءَ، شَاءَ لِيُدْفِعُ الْكَفَرَ بِالْإِيمَانِ وَلِيُقْرَرُ فِي الْأَرْضِ حَقِيقَةُ الْعِقِيدَةِ الْوَاحِدَةِ الْصَّحِيحَةِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُلُ جَمِيعًا، فَانْهَرَفَ عَنْهَا الْمُنْحَرِفُونَ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْضَّلَالَ لَا يَقْفِزُ سَلِيبًا جَامِدًا، إِنَّمَا هُوَ ذُو طَبِيعَةٍ شَرِيرَةٍ، فَلَا بدَّ أَنْ يَعْتَدِي، وَلَا بدَّ أَنْ يَحَاوِلَ إِضَالَةَ الْمُهَتَّدِينَ، وَلَا بدَّ أَنْ يَرِيدَ الْعُوْجَ وَيَحَارِبَ الْإِسْتِقَامَةَ، فَلَا بدَّ مِنْ قَتَالِهِ لِتَسْتَقِيمَ الْأَمْرِ.

{وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعُلُ مَا يُرِيدُ} مُشَيَّةٌ مُطْلَقَةٌ، وَمَعَهَا الْقُدْرَةُ الْفَاعِلَةُ.

أَلَمْ نَسْمَعْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {الَّذِينَ آمَنُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغِوتِ فَقَاتَلُوا أُولَئِكَ الْشَّيْطَانَ إِنْ كَيْدَ الشَّيْطَانَ كَانَ ضَعِيفًا} [النِّسَاء: 76].

وَقَالَ سَبَحَانَهُ: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أُولَئِكَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمرَان: 175]، عَلَى تَقْدِيرِ حَرْفِ جَرِّ مَحْذُوفٍ: يَخْوِفُ بِأُولَئِكَهُ.

وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلِبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} [الأنْفَال: 36].

وَقَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ بِشَرِى لِحَمْلَةِ الدُّعَوَةِ مِنْ بَعْدِهِ: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنْفَال: 30].

4- يَقِينُنَا بِالظَّفَرِ لَا يَعْنِي الْكُسْلُ

وَإِنْ يَقِينُنَا بِأَنَّ تَخْطِيطَ وَمَكْرَ الْعُدُوِّ لَنَا أَمْرٌ إِلَى فَشْلٍ وَإِلَى زَوَالٍ وَأَنَّ الشَّامَ فِي كُنْفِ اللَّهِ وَكَفَالَتِهِ، لَا يَعْنِي أَنَّ نَمْشِي هَمْلاً، دُونَ تَبَصُّرٍ وَدَرَايَةٍ، بل الْوَاجِبُ إِعْدَادُ الْخَطَطِ الْمُنَاسِبَةِ لِتَفَادِي مَا يَمْكِرُ لَنَا، وَهَذَا دَاخِلٌ ضَمِّنَ دَائِرَةِ الْإِعْدَادِ الْوَاجِبِ {وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنْفَال: 60].

فَهُذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَضْعِفُ الْخَطَطِ الْحَرَبِيَّةِ فِي كُلِّ الْمَعَارِكِ وَالْغَزَوَاتِ الَّتِي خَاضَهَا، وَيَخْطُطُ لِرَحْلَةِ هَجْرَتِهِ مُتَخَذِّلًا كُلَّ أَسَالِيبِ الْحَذْرِ مِنْ مَكْرَ عَدُوِّهِ.

وَإِنْ يَقِينُنَا بِأَنَّ تَخْطِيطَ وَمَكْرَ الْعُدُوِّ لَنَا أَمْرٌ إِلَى فَشْلٍ وَإِلَى زَوَالٍ، وَأَنَّ الشَّامَ فِي كُنْفِ اللَّهِ وَكَفَالَتِهِ، لَا يَعْنِي أَنَّهُ مَسْمُوحٌ لَنَا أَنْ

نخالف سنن الله جل جلاله، فسنن الله لا تحابي أحداً، ولا تحابي حتى الأنبياء ولن تحابينا نحن، إن الظلم الذي نكيله لبعضنا البعض أمر حاجب للنص، وليس من سنن الله أن ينصر ويمكن من حاله كذلك: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُها عِبَادِي الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لِبَلَاغًا لِقَوْمٍ غَابِرِينَ} [الأنبياء: 105، 106].

وقال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوْيٌ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: 40، 41].

ولأن يقيننا بأن تخطيط ومكر العدو لنا أمره إلى فشل وإلى زوال، وأن الشام في كنف الله وكفالته، لا يعني أن نغفل العناية بلغة إعلامنا التي تحلق في خيال امبراطوري لا يمت إلى الحقيقة بحال، مما يعود علينا بمزيد من الأعداء، وربما يحصل الكثير من هذا اللغط في مضمار المزاودة على بعضنا البعض.

المصادر: